في مهرجان الموصل

إنطباعات عن الشعر والفسطاط وأبي تمام

في الفترة من ١١ الى ١٧ ديسمبر (كانون اول) اقيم في مدينة الموصل بالعراق مهرجان ابي تمام الشعري . في المدينة التي احتضنت رفات الشاعر العربي حبيب ابن اوس الطائي ، ومنحت للعالم الاسلامي والعربي المؤرخ ابن الاثير تجمع عدد كبير من المثقفين والشعراء والمفكرين التقدميين العرب ، تحت شعار بيت ابي تمام الشهير :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

الاسماء اكثر من ان تحصى او تحصرها الذاكرة . الشعراء من مصر محمود حسن اسماعيل واحمد عبدالمعطي حجازي ومحمد عفيفي مطر ، ومن لبنان (بحكم الاقامة) نزار قباني ، ومن سوريا خليل الخوري ، ومن السودان محمد الفيتوري ، ومن اليمن الشمالية عبدالله البردوني ، ومن العراق عدد كبير من شعراء الموصل الشبان .

كان المهرجان نجاحا لتجمع المثقفين العرب التقدميين ، الذين لم يتعودوا ان يمثلوا بلادهم في كل الظروف ، واستطاع المهرجان ـ دون قرارات ولا توصيات ولا برقيات تأييد او استنكار ـ ان يكون تعبيرا عن وجه مستنير انساني ومتفتح للثقافة العربية وللشعر العربي (في معظم هذا الشعر) . ورغم ان المهرجان لم يتح الفرصة لدراسة الشاعر الذي اقيم تحت اسمه وفي المدينة التي شهدت آخر ايامه وتلقت جسده في ترابها (وربما لم يكن هدف دراسة ابي تمام هو اهم اهداف « مهرجان » بعقد تحت شعار بيته الشعري الذي يمجد القوة ويشجب الثرثرة) فان المهرجان خارج « الامسيات الشعرية » كان أشبه بـ « استاد » ثقافي يضم العديد من مجالات العمل الثقافي العربي ، الاكاديمي والجماهيري ، المنظم والعفوي الذي يتوج خطوات تطور مستقبلي او يقدم الاجابة على اسئلة ومطالب ولمس اشواقا قديمة ومعلقة ، او ذلك الذي ينمو تلبية لوضع طبيعي لا نقع الا نادرا : وضع اللقاء الحر بين كل هذا العدد من المشتغلين بهمهم امتهم والمشاركين بشكل او بآخر في صنع وجدانها .

* * *

افتتح شفيق الكمالي وزير الاعلام والثقافة العراقي ، المهرجان بكلمة اكد فيها على ضرورة اعادة اكتشاف التراث العربي القديم والمستنير . واشار في كلمته الى اهمية هذا الاكتشاف لتربية الوجدان القومي ولفتح الافاق الفكرية والروحية امام العقلية العربية الجديدة ولتنمية وتطوير الاحساس بالانتماء القومي والوطني .

وساهمت وزارة الاعلام العراقية بكتاب عن « ابي تمام الطائي » ، حياته وشعره ، نشرت فيه الى جانب موجز حياة ابي تمام اسماء وتواريخ صدور اهم المراجع العربية والاجنبية ، القديمة والحديثة ، من كتب او مقالات ، التي كانت عن الشاعر او قامت بدراسته .

وقدمت جامعة الموصل عددا خاصا من مجلتها « الجامعة » ساهم فيه عدد قليل من المتخصصين ، وعدد كبير من الهواة ، فتحدثت اغلب المقالات عن نفس الزوايا من عبقرية الشاعر وعصره نتيجة لعدم تخطيط العدد وتوزيع موضوعاته على كتاب متخصصين .

* * *

الشعر ديوان العرب . ولا يصدق هذا القول الان كما يصدق على العراق . مئات من الشبان والكهول ـ دون مبالغة ـ يقرضون النظم ، وعشرات يكتبون ما يشبه الشعر ، وقلة قليلة هم الشعراء . ولكنك لن تجد عراقيا لا يحفظ الكثير من الشعر ، يتمثل به ، يتفجر به لسانه بعد لحظة صمت ثقيل ، او في غمرة انطلاقة الكلام المنثور . وكأن لغة التخاطب اليومية لم تعد تكفي الناس للتعبير بمدلولاتها المحددة عن افكار ومشاعر صاخبة ومختفية ومتضاربة . في العراق اكتشفت ان الشعر يمكن ان يكون للعرب لسان حال .

* * *

لقد عاش في العراق العباسي القديم ، في عصر ازدهار الحضارة العربية عشرات من الشعراء الافذاذ ، عاصر بعضهم ابا تمام نفسه ، او سبقوه او تتلمذوا عليه . فلماذا ابو تمام بالذات ؟.

لم يكن حبيب بن اوس من العراق . ولد في سوريا وتلقى اول علومه وانضج موهبته في مصر . تثقف في دمشق ثم في همذان (هي الان مدينة في جمهورية سوفياتية) واشتهر في حمص ثم في بغداد ، عاصمة العالم والحضارة العربية في عصره ، ثم مات في الموصل ودفن بها .

كل علاقته بالموصل انه زارها شابا ، ومات بها بعد ان عمل فيها « صاحبا للبريد » . ولكن علاقته بتاريخنا وربما بتكويننا الوجداني كله

اقرب الى علاقته بالارض التي احتضنت جثمانه ثم اضاعت قبره فلا يعرف الا بالظن والتخمين .

آخر شاعر انشد لآخر انتصار حقيقي للعرب واول شاعر بدأت تنتابه الشكوك في المستقبل . « السيف اصدق » كانت آخر نشيد منتصر حين فتح المعتصم عمورية . فمن البديهي ان تنطلق قصائد الانتصار مع الانتصار نفسه . الانتصار بالسيف حدث كبير وهائل وملموس . تتوقف عنده كتب المؤرخين وتتطلع اليه عيون اجيال متتالية . ولا بد ان يقف عنده الشعراء . ثم لا يذكر تاريخ الادب بعد هذا الا الشعر الذي استطاع ان يستخلص كل معنى الانتصار . السيف يلغي الكتب في مطلع قصيدة ابي تمام . كان هذا انشاءا عبقريا للانتصار بالسيف . ولكنه كان ايضا نذيرا للعقل المختنق .

لم تكن القاهرة قد شيدت بعد . كانت ما تزال هي « الفسطاط » التي شيدها ابن العاص لتكون اول عاصمة عربية لمصر . ابو تمام شاب شعره في الفسطاط وهو لم يزل في السابعة عشرة . لم يكن بالفسطاط سوى اصحاب السيف الصفار والتجار الكبار يقفون بين عالم البحر وعالم الصحراء ويغرفون الذهب من العالمين . صفار السيافة وكبار الصيارفة كانوا نجوم الفسطاط اللامعة . اما العلماء فقد انزووا في المساجد ، واشتبك الشعراء مع المهرجين في مشاجرات الاسواق . ابو تمام يتعلم في مسجد عمرو ابن العاص . يقرأ الشعر والتاريخ والفقه وترجمات الفلسفة اليونانية والاساطير الفارسية والديانات الهندية في مكتبة المسجد ومكتبات الشيوخ. شاعر آخر لم يولد بعد ، يريد ان يفهم البشر وان يستقطر اسرار الوجود . رغم علمه بانه ليس للشعر ولا للشاعر مكانة النجم : السياف او الصراف . لوعته لما عرفه لا تعيش كثيرا . فقد عرف مصيره شاعرا يعرف السر ، يتحايل بالمديح لكي يبوح به ، يكتفي من لوعته بان يشتم الدهر والزمان :

وكانت لوعة ثم استقرت ... كذاك لكل سائلة قرار
مضى الاملاك فانقرضوا وامست ... سراة ملاكنا وهم تجار
وقوف في ظلال الذم تحمى ... دراهمهم ولا تحمى الذمار
فلو ذهبت سنان الدهر عنه ... والقى عن مناكبه الدثار
لعدل قسمة الايام فينا ... ولكن دهرنا هذا حمار !

الدهر كان حمارا منذ عصر ابي تمام . اكتشف الشاعر هذه الحقيقة حين اكتشف ان السادة هم التجار ، يحمون دراهمهم ولا يحمون الذمار . والذمار هو العرض ، وهو الحمى ، وهو الوطن !

* *

لم يكن ابو تمام مجرد مداح يتكسب بالشعر :

اني امتدحتك لا لفائدة ولا ... همي جزاء مدائحي بجزاء .

كذلك خاطب ممدوحا نثر عليه الذهب لم يلتقط منه شيئا . القى قصيدته في الجمع ورحل .

لم تتفجر اصفى ينابيع شاعريته الا في مواجهة لحظة هائلة في تاريخ امته ، او حين يكتشف بحساسية مثقفة نافذة مقدار ما يتهدد هذه الامة من خطر ، او حين يكتشف ان قيمة عظيمة من قيمها تبدو او تهدر او تضيع ، وخاصة حساسية الشعر ،والشجاعة.

كان في سفر في شمال ايران في وسط شبابه حينما حاصرته الثلوج ، فاستضافه رجل عالم كريم وفتح له مكتبته . وخرج ابو تمام من المكتبة بعد شهور وقد جمع افضل مختارات الشعر العربي حتى الان : الحماسة الكبرى ، والحماسة الصغرى ، ومختارات الفحول .

ولم يكن ابو تمام مجرد شاعر نبيل ، ولا عالما من الشعروناقدا، وانما كان يرى انما يمنحه للعالم من الشعر لا يساويه في قيمته اي عطاء ، ولا اي مجد :

نظمت له عقدا من المدح تنضب البحور وما داناه في حلبها عقد
تسير مسير الريح مطرفاتها وماء السير منها لا العتيق ولا الوخد
تروح وتغدو بل يراح ويغتدى بها وهي حيرى لا تروح ولا تغدو
وتقطع آفاق البلاد سوابقا ... وما ابتل منها لاعذار ولا خد
رغائب ما تنفك عنها لبانة ... لمرتجز يحدو ومرتجل يشدو
اذا حضرت ساح الملوك تقيلت ... عقائل حسن غير ملموسة ملد
اهين لها ما في البدور واكرمت لديهم قوافيها كما يكرم الوفد

هكذا الشعر عنده . كالريح او عقد الجوهر . يخصب الارض ولا تشبع منه شهوة الراغبين ، ولا تزال اطماعهم تدور حوله ويصبح في حضرة « الملوك » اعظم واجمل من كل قائم .

احساسه القومي العارم الذي انطلق في قصيدة « السيف اصدق» واكباره العظيم للبطولة القومية الذي ظهر في رثائه الرائع لابن حميد الطوسي : « كذا فليجل الخطب وليندح الامر » ، واحساسه القوي بحاجة الشعر العربي في عصره الى اعادة اكتشاف احسن ما في تراثه واجمله وتقييمه والتعلم منه ، واعتزازه العظيم بشاعريته وحرصه على تزويد هذه الشاعرية بكل ما يتيحه له عصره من الثقافة القومية والاجنبية : هذه هي القيم التي تحفظ لابي تمام مكانته في تاريخنا الثقافي ، والتي تجعله قادرا على المشاركة في الهام ثقافتنا المعاصرة. وله ايضا في تاريخنا القومي مكانة تدعمها احتياجات الحاضر .

في عصر ابي تمام كانت الحضارة العربية قد بدأت تواجه عوامل تفسخها من الداخل ، حين سيطر كبار التجار وحلفاؤهم من القادة من الشعوب غير العربية على الخلافة ، وحين اخذت قوة الولاة في الاقطار تزداد شيئا ، وحين تزايد الظلم الاجتماعي الى حد رهيب في المزارع والمناجم والموانىء والمدن ، وحين تحول الصراع المذهبي العقلي بين المعتزلة وخصومهم الى حرب مذهبية تخفي الحرب الاجتماعية في طياتها وتتخذ الارهاب المتبادل والمذابح وسيلة شائعة ومشروعة لمواجهة الخصوم .

ولكن في هذا العصر ايضا ، عصر المأمون والمعتصم ، كانت حركة الترجمة والاهتمام بالعلوم الرياضية والطبيعية والعقلية قد بلغت اوجها . ويعدد الدكتور احمد فريد رفاعي في كتابه « عصر المأمون » اكثر من الف من امهات الكتب في هذه العلوم وغيرها واسماء اكثر من مائة من كبار المترجمين قاموا بترجمة هذه الكتب من اللغات اليونانية والفارسية والهندية والسوريانية والارامية والنبطية وغيرها في اوائل عصر المأمون وحده . بل ان المأمون ثم المعتصم كانا يضعان في معاهدات الصلح مع ملوك بيزنطة والهند وجزر البحر الابيض بنودا تنص على اتاحة الفرصة امام العلماء العرب لنقل وترجمة ونسخ ما يشاؤون من الكتب الموجودة في مكتبات وخزائن هؤلاء الملوك .

ونحن نعرف ان ابا تمام في مصر ودمشق وفي مدن العراق وايران لم يكن يهتم بشيء قدر اهتمامه بالمكتبات . بل ان ابرز ما يلتفت اليه ابن الاثير المؤرخ ومؤلف كتب الاغاني والكامل وغيرها عند تقييم شعر ابي تمام انه كان اسبق الشعراء العرب الى نقل « مقاييس المنطق والتعقل بالحكمة » الى الشعر (وهذا معناه الخروج من اطار الاحكام الجزئية المستمدة من تجارب الشاعر الجزئية وفطانته الشخصية المباشرة الى آفاق العقل البشري والثقافة الانسانية بوجه عام)، وانه كان الرائد في ذلك للعملاقين الآخرين ، ابي الطيب المتنبي والمعرّي . بل ان ابن الاثير يضع ابا تمام وتلميذيه (المتنبي والمعرّي) في مصاف آلهة الشعر صراحة مستخدما اسماء الآلهة العربية الوثنية القديمة فيقول : هؤلاء الثلاثة هم مناة الشعر ولاته وعزّاه !

انه اول شاعر عربي اذن يرتبط مسار شاعريته بمسار الحضارة العربية ومسار امته التاريخي والسياسي والثقافي . اول شاعر يحاول الخروج بالشعر العربي حقا من مضمونه الانفعالي مديحا وفخرا ورثاء وهجاء وغزلا الى المضمون الفكري القادر على الاحاطة بقضايا الوجود الانساني الكلية (من خلال نفس القالب التقليدي للقصيدة العربية في بنائها واسلوبها ونسيجها وموسيقاها ، وهذا ما يجعل محاولته من الناحية الفنية مرتبطة بالماضي اكثر من ارتباطها بالمستقبل) . اول شاعر يعرف ان رزقه وحياته يعتمدان على الشعر، ولكنه يفضل ماء وجهه على دمه :

وما ابالي وخير القول اصدقه حقنت لي ماء وجهي او حقنت دمي

واول شاعر عربي يعرف اقدار الناس بقدر تكريمهم للشعر ،

اغلى عذارى الشعر ان مهورها عند الكرام وان رخصن غوالي

ولا نريد ان نغالي كثيرا ، ولكن قد لا يكون في كلامنا مغالاة ان قلنا ان في لغة ابي تمام ، على صعوبة تراكيبها وبدويتها احيانا، صوراً وتعبيرات تنتمي حقا الى الاحساس الرومانتيكي الحديث باللغة وبالحياة ، او يمكن ان تكون طيفا عربيا قديما ، لم يتحقق كاملا ، لهذا الاحساس . والا فما « عذارى الشعر » وما «مستنقع الموت » وما « اجتماع النور والعشب » وما :

وغرّبت حتى لم اجد ذكر مشرق وشرّقت حتى قد نسيت المغاربا

وما « ارتحل تتجدد » ، ان لم تكن صورا وتراكيب تمت بنسب قوي الى هذا الاحساس العصري الفردي والعاطفي الجارف باللغة اولا ثم بموضوعات الشعر والموت والنور والخصوبة والشعور بلا تحدد المكان والارتباط بين الرحيل والتجدد اللانهائي ؟! .

* * *

ولكن لا احد من الدارسين في المؤتمر ، ولا من الشعراء ، حقق ما طلبه شفيق الكمالي ، باستثناء الشاعر السوري المعذب خليل الخوري ، وباستثناء الشاعر المصري احمد عبدالمعطي حجازي ، الاول في ندائه للحياة ، والثاني في وداعه للموت ، ثم الشاعر اليمني عبدالله البردوني في بكائيته التي خاطب فيها ابا تمام دون حجاب !.

* * *

هؤلاء الشعراء الثلاثة هم الذين حاولوا اقامة الجسر بين ما حققه ابو تمام في عصره للثقافة والوجدان العربيين وبين ما ينبغي الان تحقيقه لهما .

يخيل الى ان شعراء من طراز ابي تمام ، وابي الطيب وابي العلاء، كانوا يعانون في عصرهم ما يعانيه شعراؤنا التقدميون والقوميون الآن. اكتشفوا انهم يعيشون في عصر يحكمه ارهاب غبي رغم انه آخذ في الحصول على ادوات الاستنارة والمعرفة والذكاء ، واكتشفوا ان امتهم يتهددها الذوبان (في عصرهم بسبب هجمات البرابرة المسلمين والنصارى والوثنية وبسبب تخاذل السياسة والصيارفة وتفسخ القيم القومية التي تحفظ للامة فضائلها وتماسكها ــ وفي عصرنا بسبب هجمات الاستعمار الجديد والصهيونية ، وتخاذل عينة اخرى من السياسة والصيارفة واستقرار تفسخ القيم القومية وصعوبة استعادة الفضائل المفقودة والقهر الذي تمارسه رجعية متراكمة يسندها تراث تاريخي هائل من السيطرة والتخلف وغيبة القيم الديموقراطية) واكتشفوا انهم كشعراء وكمثقفين يحملون تراث اعظم ما خلقته امتهم واجمل ما تصبو اليه في المستقبل لا وزن لهم وسط وزراء من نوع ابن الزيات وولاة من نوع كافور الاخشيدي الخصي واصدقاء من نوع ابن الفرات ، واكتشفوا ان امتهم في هذا الوضع ــ رغم ما تترجمه من كتب وما يقوم به بحارتها من اسفار وما تصنعه من حرير او سيوف اوتار يونانية ، وما تشيده من مساجد او مدارس او بيمارستانات ــ تعاني من احتقار حكامها للثقافة ولمضمون الثقافة الحقيقي : الحرية ، ومن احتقار هؤلاء الحكام المكتوم ــ لولا تقاليد الخوف من « الشعر » وليس احترام الشاعر ــ للشاعر الذي يمدحهم . لهذا السبب تحولت مدائح ابي تمام وتابعيه الكبيرين الى افتخار بانفسهم وبشاعريتهم ومكانتهم ، وتحولت رؤاهم الفلسفية الى حكم في ذم الدهر والزمان وفي تمجيد العقل وتحقير القوة الجاهلة العمياء ، وفي ابراز قيم الشجاعة الفردية والكبرياء الشخصي والاباء وعزة النفس (كان الفارس العربي المجاهد غير الذليل هو النموذج الحقيقي الذي يطمح اليه المتنبي صراحة ، وكان الفيلسوف الزاهد محتقر الدنيا هو النموذج الذي حققه المعري)وكانت هذه القيم هي القيم التقدمية الحقيقية (لا يقابلها او يستبدلها الا موقف المتصوف او قاطع الطريق) التي يسمح بها عصرهم ويستطيع ان يتقبلها ــ كنقيض لمضمونه ــ الى حين تحترق نفس ابو تمام بشعلة نشاطه كما قال عنه الكندي الفيلسوف حينما رآه قبل وفاته بسنوات قليلة ، او الى حين يغتال بدوي قميء ابا الطيب في الصحراء، او الى حين يموت المعرّي في محبسه الاختياري بهدوء .

هذه هي الاسباب عينها التي جعلت الشعراء المعاصرين الثلاثة يعبرون عن كل الشكوك والعذاب والحيرة التي امتلأت بها قصائدهم .

ولكن البردوني والخوري كشاعرين في عصر المقاومة والهزيمة اكتشفا قيمة ما انجزه ابو تمام في عصره للوجدان والعقل العربيين، اكتفيا بأن أخذا من ابي تمام قدرته على البكاء المحزون ،شتيمته للدهر ، ثم قدرته على الانشاء للانتصار .الفرق بينه وبينهما انه كان يبكي لامته وهو يبكي لشهدائها او لنفسه ، وانهما كانا يبكيان كل لنفسه وهو يبكي لامته ، وانهما لم يشتما الدهر وان شتما ما فعلناه نحن بدهرنا ، وانه كان ينشد لانتصار حقيقي يخشى من ورائه عوامل الهزيمة التي تختمر ، وانهما كانا ينشدان حلما بانتصار مقبل يتجاوز الهزيمة القائمة ، ولهذا السبب القى ابو تمام الكتب في مطلع قصيدته ، بينما غنيا للسيف الذي يهتدي بما تقوله « الكتب الصحيحة » كل من وجهة نظره .

ولكن خليل الخوري يعرفان ابا تمام حين كان يتغنى بوجوده العربي بين الشام والفسطاط وبغداد والرفيق فانما كان يتغنى بوجود حقيقي ومتحقق . اما خليل فانه ينادي وجودا ملغيا متفتتا:

لا ، لا يا أبا تمام . سقاك الغيث\
كانوا ، وانتهوا .\
واليوم . من حد المياه الى الرمال\
مفازة ، يعوي بها العدم الرهيب\
وليس من ...

وهو حين يغتصب لنفسه مكان المتكلم بلسان الامة ، والخارج عليها في وقت واحد، يجد المبرر الفني والفكري لوجود من يمكن ان يخصب هذا العدم ببذرة الحياة . انه الشاعر نفسه . يحقق لذاته مكانة النبي والبشير حتى ولو في الشعر ، طالما لا يسمح له الواقع الا بمكانة النذير والطارد .

اما البردوني فلم يسمح له بناؤه الكلاسيكي الوحيد الصوت ان يخلق في قلب قصيدته مثل ذلك النسيج . ولذلك فانه يستسلم طول القصيدة للوضع الذي حكم به عليه واقعه وواقعنا : وضع النذير والمطارد. وبناؤه متسق تماما مع اسلوبه في التفكير . ولذلك فان شتيمة الدهر اعلى عنده نبرة رغم انه يريد ان يشتم ما صنعناه نحن بانفسنا . وهذا هو السبب في اننا قد نتعاطف معه وهو

يقرأ قصيدته ويقول ان في حلقه ما تزال الف مبكية او ان
.. الاعادي اهدروا دمنا ونحن من دمنا نحسو ونحتلب

أو أن صنعاء جميلة « عاشقاها السل والجرب » ، ولكننا اذا خرجنا من وضع المستمعين القدامى ، عاقدي الحبا حول شاعر يمتطي راحلته وينشد متنغما ممسكا سيفه او متكئا عليه ، وعدنا الى وضع « القراء » المتفحصين ، فوجئنا بأنه لا مبرر لبيت النهاية الاخير ، وشطره الثاني على وجه التخصيص ، المأخود من أبي تمام نفسه :« ان السماء ترجى حين تحتجب » والذي أراد فيه البردوني ان يؤكد وجود « الامل » في الخروج من أزمة الانقراض التي لا نرى غيرها طوال قصيدته . والعيب هنا ليس هو مجرد هذا العيب الفني انهين ،وانما هو عيب ينم عن خلل فكري خطير ، خال معناه ان الشاعر عاجز عن ان يرى في الواقع عيانا الا وجها واحدا ، هو وجه العقم والانهيار والهزيمة والموت ، وان الرجاء في الغيب ليس رجاء نابعا من اليقين في القوى الواقعية القادرة على التغيير ، وانما هو رجاء ميتافيزيقي ينبع من الايمان برحمة العناية الالهية .

ولم يكن كذلك نزار قباني الذكي . انه ببساطة يكتفي بمهاجمة كل شيء : الشعر والشعراء ، والثوار والرجعيين والكتابة والتراث، والمنجزات والنوايا والدموع والقصور واللغة والايمان .يرانا « نطقطق عظم ارجلنا » ، لا حس لدينا ولا خبر عن ثورة البحر والشجر واليدو والحضر . ولذلك يرى انه من المناسب أن يعظنا « لا أحد بسيف سواه ينتصر ». ولذلك كان نزار ـ بتعبيره ـ اول الرافضين دون سيقان والخطباء دون اسنان . فليست الشتيمة والوعظ بديلا ممكنا عن الرؤية النقدية وكشف اعماق تجاربنا السوداء . لم يكن كالبردوني لانه ضمن نصائحه في ثنايا قصيدته ذات الموسيقى الخارجية القوية (رغم كراهيته للتزمير والتطبيل ـ ولكنه يحسب حساب سهولة الحفظ عند أحداث العقول) ولم يحاول ان يجهد نفسه بالعثور على رجاء من أي نوع ، ميتافيزيقي او مادي . وكالعادة لا نعرف لماذا يكتب شعره اذن ، ولمن يكتبه ، ومن يتوقع ان يوقظه من راحة طقطقة عظام الارجل المتيبسة !.

* * *

اما احمد عبدالمعطي حجازي فقد القى واحدة من اجمل قصائده : « مرثية العمل الجميل » . كان قد اعدها لكي يلقيها في الذكرى الاولى لوفاة جمال عبدالناصر . ولم يسعفه الحظ لالقائها الا تحت شعار : « السيف اصدق انباء من الكتب » .

من اللحظة الاولى يتكون الموقف ويتكون جوهر التجربة في قصيدة حجازي . هناك قيمة عظيمة كان الشاعر يؤمن بها .كشف رحيلها او موتها عن ضرورة مفارقتها ، سواء كانت حقيقية ام خدعة . فالحياة لا ينبغي ان تتوقف عند القيم الراحلة ، ولا عند اللحظات الجميلة المتسربة مع حبات رمل الزمن . والشاعر يجب ان يستمر في الغناء للمستقبل مهما اكتشف من انخداعه بالماضي او عجز الحلم الجميل عن التحقق . ولذلك لا يفاجئنا في قصيدة حجازي الا ما ينبغي ان نفاجأ به : الرؤية الشعرية والكشف الوجداني الصادر عن معنى عظيم من معاني الحياة والشعر ، ومن معاني وجود الشاعر نفسه في حياتنا ووظيفته. موت الرجل العظيم ينجلي دائما عن مأساة . والمأساة هنا كانت مأساة الشاعر مع حلمه ، والشاعر ليس هو « المغنى » الفرد ، وانما هو المعبر عن وجدان امة بكاملها وعن ضمير اجيالها بأسره . فهو المعبر ايضا عن مأساتها ،والمأساة لا تنتهي ابدا بهزيمة البطل . انما هي تبدأ بها، ولا تنتهي الا باليقين في القدرة على تجاوزها في التجربة ،او في تجربة ، لاحقة .

الشاعر في قصيدة حجازي كان باحثا عن حلم لمدينة يحقق لها الحرية والعدالة واصالة النسب . وهو يتساءل عن السبب في يقظته من الحلم ، فلا يجد شيئا من الكنوز الموعودة بين يديه . انه لا يتملص عن المسؤولية ، لا ينكر خطاه ، ولاالمبالغات التي اسرف فيها الغناء والثقة . ولكنه يعلن منذ اللحظة الاولى « لم يبق الا الفراق ... ثم أقول وداعا ، يعلن قدرته على الاستمرار في الانشاد للحلم ، تاركا ضريح المأساة والاحلام المخفقة :

فوداعا هنا يا اميري
آن لي ان اعود لقيثارتي
واواصل ملحمتي وعبوري .
تلك غرناطة تختفي
ويلف الضباب مآذنها
وتغطي المياه سفائنها
وتعود الى قبرك الملكي بها
واعود الى قدري ومصيري .
من ترى يعرف الآن في اي ارض اموت
وفي اي ارض يكون نشوري .
انني ضائع في البحار ، ضائع
بين تاريخي المستحيل ، وتاريخي المستعاد .
حامل في دمي نكبتي
حامل خطأي وسقوطي
علني الآن اذكر صوتي القديم
فيبعثني الله من تحت هذا الرماد
أم أغيب كما غبت أنت ،
وتسقط غرناطة في المحيط ! .

القاهرة — سامي خشبة

فارس مدينة القنطرة

مجموعة قصص

بقلم الدكتور

عبدالسلام العجيلي

٢٥٠ ق.ل. — صدر حديثا

منشورات دار الآداب